كلام الشهود

مصر في وعي «تلميذ» فلسطيني

فيصل درّاج

إلى الراحل أحمد نبيل الهلالي،
الذيوحّد بين الفكر النزيه وصدق الممارسة.

أشياء قليلة كان يؤسطرها وعي الصبي الفلسطيني، الذي نقلته النكبة مع أهله من الوطن إلى المنفى، وأدمن على الاستماع إلى ما تقول العائلة وأصحابها، في ليالي الشتاء. جاءت الأسطرة البريئة من طريقة الكلام، التي كانت تسرد المواضيع، وتضيف إليها ما تشاء، باعثة في المخيلة صوراً مختلفة الأبعاد توقظ الفضول.

كان بين الصور عز الدين القسّام، الذي ذهب إلى الجبل، وعاد سريعاً في تابوت مشت وراءه الألوف، وعبد القادر الحسيني في صورة ثابتة تجمع بين الكوفية والمنظار العسكري، ورصاصات معدودة، وفلاح ثورة ١٩٣٦ الذي امتد في الأرض، وامتدت الأرض فيه، كما قال غسان كنفاني.

غير أن هذه الصور التي لازمتها الأسطرة كانت تمر، بشكل إيقاعي، على مصر، في نيلها العظيم، الذي ينبع من «سدرة المنتهى»، وأهرامها التي شيّدت منذ بدء

فيصل درّاج، كاتب وناقد فلسطيني يقيم في دمشق

الخليقة، وسيد درويش، الذي اشتق الغناء من إيقاع عمّال البناء، و«البكباشي» جمال عبد الناصر «الذي سيعيد خلق العالم العربي من جديد»... كل شيء كان هناك، يبدأ من فلسطين ويعود إلى مصر، أو يبدأ من مصر ويحتضن فلسطين. كان ذلك في زمن بدت السياسة فيه شأناً عاماً، يؤكد أن منفى الفلسطينيين إقامة مؤقتة.

لم يكن الصبي الفلسطيني يدرك، آنذاك، أن الأسطورة تردّ إلى أصل نقي أول، وأن الوعي الأسطوري يرى خلقاً أولَ شهدت عليه الآلهة، ولم يكن يدري أن أسطرة مصر تضعها فوق غيرها من الأقاليم، وأن فيها ذلك الغموض الذي لا تبدّده كتب التاريخ كثيراً. وكان راضياً بما اقتنع به.

ولعلّ ذلك الغموض، المسوّر بالفتنة والحنين والحلم، هو الذي جعل فلسطينيّ الخمسينيات والستينيات، من القرن الماضي، مصرييّ الهوى، وأقنع أبناءهم أن يروا إلى العالم بعيون مصرية، لأكثر من سبب.

زمن الصبا وثقافة الاستهلال:

وفقاً لما كان ينصح به الآباء كنّا، أو كنتُ، نقتفي آثار ما يأتي من «وادي النيل» أو «أرض الكنانة». وكان ما نقتفيه من آثار مصر محاطاً بأسطورة صاغتها الذاكرة البريئة. لذا كانت الأغاني جميلة، قبل أن نستمع إليها، والأفلام رائعة قبل أن نراها، والقصص رشيدة قبل أن نقرأها، والمجلات ساحرة قبل أن نتصفّح مواضيعها.

وكنّا نستمع، ونرى، ونقرأ، ونتصفح، وننتظر، ونشعر بفخار لا ندرك أسبابه تماماً. ولأن للصبا مواضيعه كنا نستمع إلى «مطرب الأمراء والملوك»، محمد عبد الوهاب، ونعجب بصورته أيام الشباب حيث السالفان الطويلان وعينان ناعستان وشفتان كبيرتان، وفيلم «الوردة البيضاء»، الذي يفتخر عمي بأن رآه في مدينة حيفا، فإن صعّد فخاره قال أنه رأى «المطرب الملك» في مدينة حيفا أيضاً. لم يكن في أغاني «كليوباترا» «الجندول»، و«الكرنك»، ما يلبي أذن صبي بسيط، ولكن كان في مصرية محمد عبد الوهاب ما يرضي الصبية والكهول والشيوخ معاً.

ومع أن أغاني نجوم الطرب، كما كان يقال آنذاك، كانت تتقاطر إلينا رافعة أسماء أم كلثوم، وليلى مراد، ومحمد عبد المطلب، وعبد الغني السعيد..، فقد كانت السينما قاربنا السحري الأول، الذي يأخذنا إلى أحياء المعادي، ومصر الجديدة، والست زينب، وإلى عالم «الأزهر»، الذي يخرّج العلماء، وجامعة القاهرة المقمّطة بسحر منير، وأطياف «المعتز» باني القاهرة، وأسماء سعد زغلول، والمثّال مختار، والرسام محمود سعيد، والنيل العظيم، ساحر الغروب، في أغنية عبد الوهاب، قبل أن يصبح تمثالاً من الماء لا «سحر» له، في فترة لاحقة، ذكرها محمود درويش بحزن كبير. كنا نسافر إلى مصر بأفلامها ونعود بأحلام مزهرة، وكنا نظن أن المصريين لا يموتون، وأن أجداد الفراعنة خلقوا الموت والحياة معاً.

من الغريب الأليف، وبعد انقلاب عبد الناصر الكبير، أن تنبهنا أفلام مصر إلى ما يجري في مصر وما سيكون. فبعد فيلم «الله معنا»، الذي لعب الدور الأول فيه ممثل رومانسي مخذول هو عماد حمدي، بلغة الناقد المصري كمال رمزي، عرفنا أن «الملك الأكول» راعي الأسلحة الفاسدة في حرب فلسطين قد رحل، وبدت الصورة أكثر وضوحاً في فيلم «رد قلبي»، الذي جمع كاتب «روايته» يوسف السباعي، بين الحماس الوطني و«التلفيق الاشتراكي».

وبعد أن أخرج توفيق صالح، الفنان الحقيقي الأخلاقي فلم «المخدعون»، المأخوذ من رواية اليساري صلاح حافظ، أدركنا، ولم ندرك تماماً، أن «الانقلاب الكبير» ينكر التحزب واختلاف الآراء. كان كل ما هو «ناصري» يبدو مضيئاً، وكانت الجماهير المشدودة إلى «فارس الأمل»، وهو عنوان رواية لجورج أمادو، ترى «الريّس» نوراً وما عداه «سفاهات».

جعلت أسطورة مصر، التي تلغي الأزمنة، من عبد الناصر امتداداً لصلاح الدين، وعهدت إلى القمر برفع «صورته»، وكان بعض الفلسطينيين، شباباً وكهولاً، يتأمل في ملامح القمر ملامح عبد الناصر. بل إن في عبق مصر ما حرّر مجلة «الرسالة»، لأحمد حسن الزيّات، من زمنها، فبدت في مطلع الخمسينيات ـ ١٩٥٢ ـ ما كانت عليه في مطلع الثلاثينيات، وقريبة من فلسطين قبل «الانقلاب الكبير» وبعده. كنا

نقرأ بفخار كبير اسم الأديب الفلسطيني إسعاف النشاشيبي، الذي كان يمر في بعض أعدادها، ونفتش في صفحاتها عن اسم خليل السكاكيني، الذي أصبح عضواً في المجمع اللغوي المصري في عام سقوط فلسطين، بتزكية طه حسين وغيره.

ولعلاقة الشاب الفلسطيني مع المجلات المصرية حديث طويل، فهي جزء من وجدانه ونافذته على القراءة والعالم، وفي أسماء كتّابها ومطابعها والعملة التي تعلن سعرها ما يستحضر حديث الأهل القديم، الذي نسب إلى الفراعنة اختراع الموت والحياة معاً. كانت هناك: «الرسالة» التي حملت أعدادها القديمة حواراً عن «أصل المقامات» وعن قضية «اللغة العامية، واللغة العربية الفصحى»، ومقالة لاحقة لسيد قطب عن نجيب محفوظ، ولازمها، لفترة، مجلة «الرواية»، التي كانت تكتفي بالترجمة، ونشرت قصصاً للفرنسي دوموباسان، وكان ينشر في صفحاتها الأخيرة دريني خشبة ترجمة لـ «إيلياذا» هوميروس. ومجلة «الكاتب المصري» في أعدادها القليلة التي أشرف عليها طه حسين، وأغلقها في عام سقوط فلسطين، بعد حملة مغرضة من محترفي الكذب المتكسّب والمواهب الماسخة والأرواح المبتورة، ... غير أن من يذكر تلك الأعداد تمر عيناه على اسم سهير القلماوي، التي كتبت لاحقاً دراسة ممتازة عن «ألف ليلة وليلة»، وعبد القادر القط، هذا الناقد الرقيق الذي لو كان اللطفُ إنساناً لكانه، وملكْ عبد العزيز، الشاعرة التي ارتبط اسمها، بصدق، باليسار المصري، والدكتور سليمان حزيّن الذي دافع عن فلسطين في دراسة لامعة له عمّا دعي بـ «جامعة الدول العربية».

كان طه حسين عند جيل من الفلسطينيين، تردّد على حيفا ويافا والقدس، هو المصري الذي يتاخم الغيوم، قبل عبد الناصر وبعده، ذلك أنه «العبقري الأعمى» الذي علّم المبصرين. كان عبقرياً مرتين: مرة أولى لأنه هزم عماه، وأصبح «السيد العميد»، ومرة ثانية لأنه كان فقيراً تجاوز فقره بالعلم والعمل والمعرفة. وكثيراً ما كان يواجه به الفلسطينيون الفقراء أبناءهم، ضاربين به المثل بقوة الإرادة وانتصار الروح، كما لو كان لاجئاً فلسطينياً، من نوع خاص، حرّر ذاته من العمى وهزم دعاة الظلام.

لم يكن الفلسطينيون، آنذاك، مشغولين بالتحليل والتحريم، وحراسة الأرواح،

كانوا يفصلون بين العقل الخامد، والعقل الفاعل، ويدافعون عن جماليات الحياة. أما جيل الشباب، الذي كان يتردد على المدارس الثانوية، في دمشق، فكان يؤثر كتابين للسيد العميد على غيرهما: «الأيام» الذي كان البعض، ومنهم كاتب هذه السطور، يحفظ صفحاته الأولى غيباً، ويتلوها بغبطة وفخار وبهمس، وما هو بالهمس، يلامس أحلاماً شاردة. والكتاب الثاني هو: «المعذبون في الأرض»، الذي يمرّ عليه الشباب الفقراء أكثر من مرة، ويعالجه الشباب المتياسرون بجمل مقطعة.

بعد زمن سيعود أحدهم راضياً بعد أن قرأ جملة يقول فيها العميد: «إنني أياسر ما استطعت إلى المياسرة سبيلاً»، مبرهناً عن «يساري مضمر»، سيعرف اليساريون، في فترة النضج النسبي، أن كتابة «الفتنه الكبرى» أكثر عمقاً ونضارة من «دراسات مادية متمركسة»، كما قال الراحل سعد الله ونوس ذات مرة.

كل هذا بمناسبة مرور سريع على مجلة «الكاتب المصري»، التي نصرت المعرفة المتخصصة، وجمعت بين دفتيها حديثاً دقيقاً عن الفلسفة، والأدب، والفنون، والسياسة العالمية. وكانت هناك مجلة الهلال، التي كانت تكتب عن «أشيا خفيفة» بأسلوب أنيق، وكنا نشتريها لرخص ثمنها، الذي لم يكن أكثر من بطاقة سينما في صالة متسامحة، والتي حاول الارتقاء بها، بجهد مخلص، السيد مصطفى نبيل، رئيس التحرير في العقد الأخير من القرن الماضي.

غير أن المجلة المصرية التي كنا نرى فيها امتداداً للرسالة والكاتب المصري و«الثقافة» لأحمد أمين، فجاءت في «الستينيات» مع يحيى حقي في «المجلة»، حيث كل موضوع له ما يبرّر نشره، ومجلة «الفكر المعاصر»، التي كان في هيئة تحريرها أكثر من اسم (أنيس منصور على سبيل المثال)، دون أن يحجب ذلك، أن مستواها الرفيع يعود أولاً إلى مدير تحريرها العقلاني: د. فؤاد زكريا.

لم يكن الأمر في مجال الأجناس الأدبية مختلفاً. فإذا كانت مصر مبتدأ لغيرها، فإن الأدباء المصريين ناصية الأدباء العرب، لا لشيء إلا لأنهم مصريون قبل كل شيء. وكان مطلع القراءة المنفلوطي، الأستاذ في الأسلوب، وأدب الدموع معاً، بلباسه التقليدي وترجماته الطليقة التي ما هي بالترجمة: رواية «العبرات» التي ترضي «المتخيّل

العاطفي» وتستدعي الدموع، و«النظرات» التي تتأمل العالم بالبلاغة، ورواية «في سبيل التاج»، التي يتجاوب معها سوق القراءة ويتخذها التلاميذ نموذجاً للكتابة.

ولم يكن ينافس «العبرات»، في مرحلة الصبا، إلا رواية «لقيطة» لمحمد عبد الحليم عبد الله، التي ظفرت بجائزة الدولة ورفدت أدب الدموع بدمع جديد، في انتظار روايات إحسان عبد القدوس، التي يفسّر نجاحها بـ«علم اجتماع القراءة» لا بمعايير الأدب. كان لأبطال إحسان بريق خاص، تدعمه كتاباته السياسية في مجلة «روز اليوسف»، التي تدعم الانقلاب الناصري، وترفع راية مصر ما بعد ـ الملكية. أما إبراهيم عبد القادر المازني فقد كنا نعرف أنه «مهم»، ونحفظ عنواني كتابين شهيرين له: «حصاد الهشيم» و «قبض الريح»، ولم نكن نقرأه كثيراً.

لم تكن تلك القراءة أدبية، ولم يكن فيها ما يستطيع الفصل بين القمح والزؤان، ذلك أن باعثها كان قائماً في فتنة مصر، لا في فضول المعرفة، وفي فتنة الجديد الواعد، الذي هزم تجار «الأسلحة الفاسدة في حرب فلسطين»، ورأينا فيه وعد تحرير فلسطين، قال بذلك أو لم يقل به. كان الزمن الناصري هو زمن البداهات الخيّرة، التي أقنعت الفلسطيني أنه ليس طفلاً فقيراً في العراء، فوراءه مصر، ووراء مصر البكباشي جمال، ووراء جمال، وأمامه، أطياف مصر الخالدة.

استهلال آخر يشكّل منظور العالم: اليسار

في مطلع ستينيات القرن الماضي، وقد مضى على احتلال فلسطين ١٢ عاماً، كان يأتي من مصر إلى دمشق ما يأتي، ويسمح لفلسطينيين، ينوسون بين الصبا والشباب، بالاختيار. كان البعض يحمل كتاب «فلسفة الثورة» لعبد الناصر، الذي يسرد حكاية «الفارس الذي أرهقه الضياع وحط الرحال في أرض مصر»، وكان بعض يقرأ، سراً، «معالم على الطريق» لسيد قطب، وكان المسلم غير المتشدّد يقرأ مصرياً آخر: خالد محمد خالد صاحب كتاب: «لكي لا تحرثوا في البحر»، الشيخ الذي دعاه عبد الناصر تهكماً بـ«الرفيق».

غير أن البعض آثر أن يبتعد عن هذا وذاك و «تسلّل» إلى كتاب محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس «دراسات في الثقافة المصرية» واستقر هناك. كان الكتاب المؤلف من دراسات منفصلة يبشّر بالماركسية، نظراً، وبالواقعية منهجاً في الأدب. ومع أن مكتبات دمشق كانت عامرة، بشكل أو بآخر، بما يبشّر بالنظر والمنهج معاً، كانت الحقيقة تأتي من مصر ـ الحقيقة، حتى لو كان في هذه الحقيقة ما يختلف مع عبد الناصر وسياسته.

وواقع الأمر أننا لم نكن نقرأ «المنهج المادي»، حتى لو توهّمنا ذلك، إنما كنا نقرأ ثقافة مصر في منظور متمرّد. ولهذا كنا نمر سريعاً على مقدمة الكتاب التي تفصل بين النظر السكوني إلى التاريخ والنظر «الجدلي» له، متوقفة أمام ت.س. إليوت، وعبد الرحمن البدوي، ...، لنصل مباشرة إلى ما نريد الوصول إليه: نجيب محفوظ وروايته «زقاق المدق» وضيق النظر «البرجوازي الصغير» إلى العالم، وعبد الرحمن الشرقاوي وروايته «الأرض» وفضائل «البطل الإيجابي» المنبثق من قلب الحياة، وتوفيق الحكيم في «أهل الكهف» وتعطيل الحياة في «منظور ساكن» لا يرى ما خلف الظواهر، وعباس العقاد و «عضوية القصيدة» وطه حسين ووحدة الشكل والمضمون و «يوناني فلا يُقرأ»... كنا ندخل إلى «قصور الثقافة المصرية» من طرق جديدة، وننسى سريعاً وصايا الطريق لنقرأ «أيام طه حسين» وروايته «دعاء الكروان» وننبهر بنثره الذي لا يحاكى في «هامش السيرة»، ولنعود إلى توفيق الحكيم في «عصفور من الشرق»، و«عودة الروح» بكلامها الكثير، ونثرها البعيد عن «المنفلوطي»، ونطيل الوقوف أمام «يوميات نائب في الأرياف»، التي يطرد جمالها «التحزب الأيديولوجي» ويعلن أن في الجميل ما يمحو المسافة بين الأيديولوجيات.

كان في كتاب العالم وأنيس ما يبعث فينا «غضباً مكبوتاً»، لأنه كان في أعمال محفوظ ما يعبث بالأحكام الجاهزة، قبل نشر «الثلاثية» وبعد كتابة «أولاد حارتنا»، عام ١٩٥٩، في انتظار «اللص والكلاب»، الرواية التي سمحت لجيل شاب بتحرير عقله، إذ كل طرف يجد فيها ما يريد. مع ذلك فإن ثلاثة من مصر كان الشباب الفلسطينيون يختصمون فيهم ويعودون إلى الاتفاق: ثراء طه حسين، الذي كان

أنصار سيد قطب يختصرونه إلى «الأيام»، وعبقرية محفوظ، التي تقلق البعض ولا تستثير العداء، وأهمية جمال عبد الناصر، التي يقرّ بها البعض بعناد ويرى فيها ما تبقى حقيقة كالماء والهواء. لم نكن نعرف، ونحن ندخل إلى عامنا العشرين، أن حرباً قادمة بعد أربع سنوات – ١٩٦٧ – ستلحق هزيمة كاسحة بالثلاثة معاً، وإن كان محفوظ المتشكك قد عوّض هزيمته بكتابة متوالدة.

كان في كتاب العالم وأنيس ما أخذ بيدنا إلى مجلة «الطليعة»، التي كان في منهجها ما يأتلف مع التوفيقية الناصرية، وشخصية لطفي الخولي، رئيس التحرير. كانت تشدّنا إليها كتابات «ميشيل كامل» الرومانسي المصري الذي كان ماركسياً بـ «الطبيعة» لأنه كان مفتوناً بالعدالة ومساواة البشر. حفظنا له طويلاً دراسته الرائدة عن «البرجوازية الصغيرة»، بلغة ذاك الزمان، قبل أن يقذف به نظام السادات إلى بيروت ويصدر «كتابات مصرية»، مستأنفاً ما بدأ فيه قبل ثلاثين عاماً وأكثر، راحلاً إلى باريس ومجلة «اليسار العربي»، إلى أن رحل لأنه كان عليه أن يرحل، بسبب الشيخوخة وسقوط «بلد الاشتراكية الأول».

لم تغادرنا فتنة مصر بعد رحيل البكباشي ومجيء «صريع المنصة». بقينا نتابع يوسف إدريس وقصصه القصيرة، ومحفوظ وأضيف إليه روائيون جدد، ونقرأ بحزن كبير «قصائد» نجيب سرور، الذي هُزم كشاعر وكإنسان، وحمله غضبه العاجز إلى موت فقير. وانطلاقاً من إخلاص لـ «يسار مصري»، أخلص بعضه، وسقط بعضه في المساومات والتكسّب المهين، استُقْبِل كتاب أحمد صادق سعد: «نمط الإنتاج الآسيوي»، في منتصف ١٩٧٠ باحتفال كبير، كما لو كان يبرهن أن الجديد الفكري يأتي من مصر «حتى في زمن الخراب».

كان هذا الباحث، المصري واليهودي معاً، سبّاقاً في تشريح المشروع الصهيوني والدفاع عن عروبة فلسطين، في دراسات سبقت عام ١٩٤٨. وما دام الأمر قد مسّ يساراً مخلصاً و «يساراً موسمياً» تجب الإشارة إلى ذلك النزيه الأميل إلى القصر: أديب ديمتري، الذي دافع عن القضية الفلسطينية في مجلة «الطليعة»، وقبلها، وأصدر في بيروت، في «مرحلة الكفاح المسلح»، كتابه: الماركسية والمسألة اليهودية

– إن لم تخدعني الذاكرة ـ وعاد إلى الصهيونية لاحقاً في كتابه الكبير: «تحطيم العقل»، الذي درس النازية والأيديولوجيات الأصولية المختلفة.

كيف ينتسب «تلميذ عربي» إلى شجرة المعرفة المصرية؟ وكيف ينتسب «تلميذ فلسطيني» إلى يساريين مصريين، رأوا في رسالة اليسار مدخلاً إلى النهوض العربي؟ لا جواب إلا بما يسمح به الجواب، واختلاف الأزمنة.

والجواب الأول قائم في رواية عربية أسسها محمد المويلحي في مطلع القرن العشرين بعمله «حديث عيسى بن هشام»، وفي فلسفة سياسية بدأها أحمد لطفي السيد وأغناها محمد حسين هيكل، ومقاربة علمية للتاريخ أوحى بها طه حسين، وجسّدها، عملاً، أحمد أمين، وفي نقد أدبي تناتج في أعمال أحمد ضيف، قبل طه حسين، ومحمد مندور، ولويس عوض، وغالي شكري، وعبد القادر القط، ولطيفة الزيّات، و ... كان لأحمد ضيف ريادته وهو يستعيض عن «العمل الفني» بمفهوم البلاغة، ولطه حسين ريادته وهو يضع المنهج قبل الموضوع المدروس، ولعوض ريادته وهو يفصح عن مأساة المثقف الطليق في زمن معوّق، ذاهباً من الشعر إلى الرواية، ومن المسرحية إلى الأدب المقارن، ومن الأدب الإنجليزي إلى فقه اللغة، ... كان كل هؤلاء ينتظرون مكتبة موحّدة يحرسها أعداء الظلام، قبل أن تدخل مصر مدة أربعين عاماً في سديم يقترب من الهلاك.

أما شجرة اليسار المصري الفكرية، التي أرهقها العسف، وقبضة المخابرات، والأيديولوجيا الدينية المستنبتة بدولار نفطي «مبارك»، فموزعة على التاريخ والاحتمال، تشير إلى شهدي عطية الشافعي، الذي كتب عن قضايا الثورة الوطنية، قبل أن يقتله سجّان جاهل «مخنّث»، كما يقول محمود الورداني، وإلى مثقف لامع خارج بلده أكثر منه داخلها، هو :أنور عبد الملك، الذي أعطانا في بداية شبابنا كتاباً طليعياً: «مصر مجتمع يحكمه العسكريون»، قبل أن ينجز أطروحته الجامعية: «الأيديولوجيا والنهضة القومية»، التي نشرت في باريس في نهاية ستينيات القرن الماضي، عن دار «أنتروبوس»، والتي نشرت لاحقاً كتاباً جماعياً عن «الإمبريالية والخصوصية القومية» أشرف عليه د. عبد الملك، وشارك فيه كثيرون منهم عالم

اجتماع هنغاري يتكلّم الفرنسية بلهجة محبّبة اسمه : إمري مارتون. لست أدري إن كان على قيد الحياة حتى الآن.

كان على غلاف الكتاب الأول صورة «الماركسي المصري» في أربعيناته، أنيقاً ووسيماً، يقول مفتتحه أنّ عبد الملك يتقن أكثر من لغة. بعد ذلك «سنرى» اسم عالم الاجتماع المرموق على انطولوجيا من جزأين: «الفكر العربي المعاصر»، التي نشرتها دار نشر شهيرة «سُوْي»، سيظهر عنها أيضاً أكثر كتب عبد الملك أهمية: «الديالكتيك الاجتماعي»، الذي لم يظفر، لأسباب مختلفة، بالأهمية التي يستحقها.

كان الفاتن في ذلك كله هو «الاجتهاد المصري»، الذي جعل يسارياً هارباً من «المجتمع العسكري» أحد أبرز علماء الاجتماع في العالم. ولعل وطنية عبد الملك، أو مصريته الوطنية، هي التي قادته، في ثمانينيات القرن الماضي، إلى كتاب يثير الارتباك هو «ريح الشرق»، الذي اشتق انتصاراً قادماً، معادياً للإمبريالية، من «أعداد المسلمين»، حين أضاف إلى مسلمي الشرق الأوسط أعداد المسلمين الهائلة في الصين و«الاتحاد السوفييتي» السابق. صدر اهتمامي بعبد الملك عن مصريته اللامعة، لا عن ماركسيته، فقد عرف العالم آنذاك علماء اجتماع ماركسيين أكثر أهمية، أبرزهم الفرنسي الراحل هنري لوفيفر.

وكان هناك، في حقبة السبعينيات وما تلاها، أستاذنا سمير أمين، الماوي المعادي «للسوفييت المعادين للماركسية»، كما أشار في مذكراته، التي صدرت عن دار الآداب، في بيروت، قبل سنوات. ومع أن مياهاً كثيرة جرت تحت الجسور، بلغة مألوفة، ظلّ سمير أمين كما أراد أن يكون: عالماً مناضلاً منفتحاً على المعرفة والحياة، وإنساناً نزيهاً يقول الأمور بلا حُجُب ولا أقنعة، مؤمناً بالاشتراكية حلاً للمجتمع الإنساني كله، وعاملاً على نقد الوعي الزائف وتجديد الأطروحات الفكرية.

وآية ذلك كتبه المتأخرة عن «نظرية الثقافة»، و«نقد الخطاب العربي». لا يزال سمير أمين، الذي عطف المأساة الفلسطينية على تبعية الأنظمة العربية، عقلاً نقدياً نضراً، يفسّر أزمة الرأسمالية، ويحدّد معنى الحداثة الاجتماعية، ويحلل معنى:

«الإسلام السياسي»، وينقد «تهافت الفكر القومي»، ويشرح العولمة، بلا تعقيد ولا تبسيط، ... إنه الاقتصادي والمفكر السياسي وعالم الاجتماع الذي يعطي المفاهيم النظرية، في علاقتها بالحياة، موقع الأولوية، مؤكداً أن الحياة بلا نظر تجريب أعمى، وأن النظرية بلا حياة مجموعة من الكلمات المتآكلة.

ما يأتي من مصر ولا يأتي من غيرها.

ثلاثة أسماء تبدو لي فريدة، أو قريبة من الفرادة: طه حسين، ونجيب محفوظ، وجمال حمدان. لست أدري إن كان السبب هو فتنة خمسينيات وستينيات القرن الماضي، التي أعقبها خراب هائل جعل منها حلماً لا يمكن استعادته، أم أنه مجاز تلك الفترة التي يُدرج فيها ما هو نظيف في جميع الأزمنة، أم أنها قدرة مصر، في ذاك الزمان، التي تحوّلت إلى حلم ومجاز معاً. كنا في ذاك الزمان نلهو مع أحلام مزهرة، ونلامس أوراقها العصيّة على الذبول. وكان الحلم والمجاز يبدأ من فتنة القراءة وينتهي بها، التي أقنعتنا بأن الكتب قريبة من الآلهة.

كان لنا أساتذة كثيرون، يحرضون على القراءة والتأويل، وكانت روايات محفوظ أستاذاً نتلو عليه ما تقول به صفحاته، ونختصم أمام أقدار شخصيات روائية تبدو لنا غامضة: ما الذي جعل «عايدة» الفتاة البرجوازية المتأنقة، في «الثلاثية» تنتهي إلى مقام لا يليق ببهائها، وهل كان سعيد مهران، في «اللص والكلاب»، ثائراً من أجل العدالة، أم «برجوازياً صغيراً»، بلغة ذاك الزمان، يؤمن بالحل الفردي ولا يلتفت إلى «قوة الجماهير»، وما سبب ذلك التشاؤم العابق في رواية «أولاد حارتنا»، في زمن بدا لنا صاعداً صعوداً مدوياً لا تُخطئ ملامحه؟ كان محفوظ «يسلّينا»، ويهمّش غيره ونرضى بهذا التهميش، لكنه كان أستاذاً لنا في شؤون السياسة الأيديولوجيا، وما يشتق منهما.

ومع أن المصريين، أو بعضهم من المثقفين، كان لا يذكر اسمه إلا مقروناً بصفة «الأستاذ»، بنبرة أقرب إلى العادة، فقد كان الشباب الفلسطينيون، في مرحلة ما

قبل ١٩٦٧، يرون فيه أستاذاً نافذ الكلمة، ويرون في صدور رواية جديدة له حدثاً ثقافياً وسياسياً. وعلى الرغم من أنه لم يكتب، آنذاك، شيئاً عن فلسطين (ولم يتطرق إليها في مساره الروائي كله)، كنا نشفع له «قصوره العارض»، مؤمنين أن في اتساع بصيرته مكاناً لفلسطين. حين التقيته بعد عقود، بصحبة الصديق جمال الغيطاني، قال: «إن من يريد أن يستعيد حق الفلسطينيين عليه أن يعامل شعبه بطريقة أخرى». كان يشير إلى الديمقراطية والتحديث الاجتماعي.

وفي لقاء تالٍ بحضور جمال والراحل عبد الرحمن منيف قال: «إذا كنا قد حاربنا إسرائيل أكثر من مرة وانهزمنا، فلماذا لا نقبل بالأمر الواقع؟». مهما تكن اجتهادات محفوظ السياسية، فقد بقي، عند من قرأه جيداً، عنواناً للبصيرة العادلة.

تجلت مصرية مصر في محفوظ الذي أعاد تأسيس الرواية العربية أكثر من مرة، وطه حسين المدافع عن شرف العلم وأخلاقية العلماء. قال في لقائه الأخير مع غالي شكري: «كنا أنا والعقاد وأبناء جيلنا أصحاب أخلاق ومُثُل»، لامحاً زمناً ساداتياً قادماً يؤسس لانهيارات كثيرة، ليس آخرها انهيار أخلاق المثقفين.

الثالث الذي أرى في روحه ما يضعه إلى جانب هاتين الشخصيتين الجغرافي الذي رحل قبل الأوان: جمال حمدان، الذي أراد أن يكون عالماً حقيقياً في زمن السادات الطارد للعلم وأخلاقه، فترك الجامعة واعتزل بيته حتى لحقت به النيران ورحل. تأمل حمدان الجغرافيا السياسية، وأراد أن يشتق معنى مصر السياسية من معنى مكانها، الذي درّسه وفصّل فيه في عمله العبقري: «مصر: دراسة في عبقرية المكان»، الواقع في أجزاء أربعة كبيرة. ترك حمدان خلفه الجغرافيا التعقيدية، ورأى مصر في مكانها، ذاهباً إلى «التحرر الوطني» ومتأملاً التعارض بين دور مصر ودولة إسرائيل.

ثلاثة أمور تخايلني وأنا أتذكّر الجغرافي المصري اللامع في كل شيء: كتابة مقالاته، التي كان ينشرها في مجلة الهلال، على أوراق زرقاء بخط أنيق، كما لو كانت ورقة الكتابة مرآة لروح لا تحتمل القبح، ولا العادي المبتذل، وثانيها إصراره العنيد في بحثه العلمي، الذي أعطى مشروعه الكبير عن «عبقرية المكان» ثلاث

صياغات غير متكافئة: أصدر الكتاب في المرة الأولى في حجم صغيرة (كتاب الجيب)، وأعاد إصداره لاحقاً في كتاب متوسط الحجم، إلى أن وصل إلى الأجزاء الأربعة الواقعة في آلاف الصفحات.

برهن في إصداره أن المبدع النجيب يعرف ما يريد منذ البداية ويكرّس ذاته له، كي ينتهي إلى إنجاز يفصله عن الآخرين. والأمر الثالث هو ذلك الأسلوب الأدبي البهيّ في موضوع بعيد عن الأدب، كما لو كان جغرافياً في الأدب وأديباً يعالج الجغرافيا، يصف السهل والصحراء والنهر والوادي، دون أن ينحرف عن منظور العلم الصارم، الذي ميّزه طالباً وأتاح له بعثة دراسية في بريطانيا. ماذا يفعل النظيف في زمن يكتسحه الدنس، وما مآل العالم في جامعة يسيّر أمورها مخبر ـ أستاذ، أو أستاذ مرتزق، كما جاء في كتاب الراحل الفضيل المؤرخ رؤوف عباس، وهو يرثي الجامعة المصرية في كتابه ـ الوثيقة: «مشيناها خطى كُتبت علينا».

هؤلاء الثلاثة، وغيرهم، مرآة لما أرادت أن تكونه مصر، ومنعه عنها غياب الديمقراطية، والأنظمة المتسلّطة، والتدخل الاستعماري، الذي يدرك جيداً أن انبعاث مصر هو انبعاث العالم العربي، ذلك أن مصر هي «العاصمة» وما خارجها أقاليم متفاوتة «العبقريات».

مصر في أحزانها الفلسطينية:

لا يزال الفلسطينيون، الكهول والشيوخ منهم، يذكرون جمال عبد الناصر بحب كبير وحنين، ولا تزال بعض بيوتهم، في المخيمات، تحتفظ بصورة ذلك الضابط المصري الذي قال: ارفع رأسك يا أخي فقد ولى عهد الاستعمار».

غير أن لمصر مضحكاتها أيضاً، ولها ذلك الضحك الذي يخالطه البكاء. وهذه بعض الأمثلة: عبد الرحمن عزام، رئيس الجامعة العربية في زمن سقوط فلسطين، الذي منع عن القائد عبد القادر الحسيني السلاح، ثم تأسف عليه بكلمات قليلة بعد استشهاده، إثر عودته مخذولاً من دمشق مركز «جيش الإنقاذ»، آنذاك، الذي

لم ينقذ إلا الأحلام الصهيونية. بعد السيد عزام يتراءى الزمن الساداتي في أكثر من اتجاه، حيث «الريّس الجديد» ينسحب من «المعركة»، ويبدّد بطولات الشعب المصري بعد حدوثها، ويزن الشعب الفلسطيني بميزانه القديم المعطوب، قبل رحيل عبد الناصر وبعده.

وهناك أنيس منصور، رئيس تحرير المجلة الساداتية «أكتوبر»، الذي أدهشته رقة موشيه ديان، ونعومة أصابع غولدا مائير، أصابع من شمع أو ما يشبهه قال. وقرأنا في مجلة «المصور» جملة مؤلمة لذلك المستنير لويس عوض اختصر فيها الفلسطينيين إلى «إرهابيين». أين بصيرة عوض من بصيرة طه حسين الذي دعا الشعوب العربية إلى القتال من أجل نصرة فلسطين قبل سقوطها. وهو ما وثّقه حلمي النمنم في كتابه الجديد : طه حسين والصهيونية. لست أدري إن كان السيد العميد محقاً حين مرّ بسرعة، مليئة بالتحفّظ وبشي آخر، على اسم لويس عوض في بعض حواراته، قبل أن يرحل بعقد من الزمن!! وهناك طبعاً يُتم الفلسطيني في غزة، أيام حكم السيد مبارك، الذي اختصر دور مصر إلى الوساطة المحايدة، مساوياً بين الآلة العسكرية الإسرائيلية الكاسحة و «التمارين الكفاحية التائهة» في غزة.

لا شيء يدوم، لا عبد الرحمن عزام الذي تحوّل إلى جملة شاذة في صفحة عبد القادر الحسيني المضيئة، ولا «قتيل المنصة»، الذي أراح إسرائيل، وأرهق الفلسطينيين، ولا الكتّاب المرتزقة الذين يعترفون بنظريات اللغة، ولا يرون المأساة الفلسطينية، ولا «الأكاديمي المخبر»، الذي أشار إليه د. رؤوف عباس باحتقار كبير. لا شيء يدوم وتدوم روح مصر المستمرة من أحمد عرابي إلى ثورة ١٩١٩، ومن سعد زغلول إلى جمال عبد الناصر، ومن الأخير إلى وائل غنيم، الذي قهر سلطة الظلام بمعرفة حديثة، متابعاً مع رفاقه من شباب مصر معركة مفتوحة ضد وجوه الظلام الصريحة والمقنّعة.

كلمة أخيرة

وراء رواية عبد الرحمن الشرقاوي «الأرض» يقف الفلاح المصري الفصيح، وإلى جانب سينما توفيق صالح مخرج «المخدوعون»، يقف الفنان الراحل عاطف الطيب وفيلمه «البريء» وصولاً إلى خالد يوسف وفيلمه «حين ميسرة»، وكان هناك صلاح أبو سيف الذي حلم طويلاً بإخراج فيلم عن القضية الفلسطينية.

ربما يكون في رواية «أصوات الليل» لمحمد البساطي ما يضيء عروبة مصر الموزعة على فلسطين، والعراق، واليمن، وأقطار أخرى، وما يحيل على شباب مصر، الذين يميّزون بين زمن الحداثة الاجتماعية وثقافة الوعظ والأذكار. في هذه المساهمات جميعها ما يعد بمصر أخرى.

وما يزال ذلك الصبي الفلسطيني، الذي كان يسأل عمّه عن معنى «النهر الخالد»، قبل ستين عاماً، يتابع دروس المصريين، في الثقافة، وفي خارج الثقافة، الذي هو أبهى وأشمل.